﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨﴾ [القصص: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرّبـطُ بين طلبهمُ الرّسولَ ليؤمنوا، وكفرِهم به لمّا جاءهم

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة حجَّةَ مشركي العرب عند حلول المصائب بهم؛ وهي قولهم: هلّا أرسلتَ إلينا رسولًا فنتبعَ آياتِكَ ونؤمنَ بها، فأرسل اللّهُ إليهم رسولًا بآياته البيِّنات؛ بيَّن في هذه الآية أنَّهم لم يجدوا منَ المعاذير بعد إرسال الرّسول إليهم إلّا ما لقَّنهم اليهودُ، بقولهم: لولا أوتيَ مثلَ ما أوتيَ موسى، أي: بأن تكون آياتُه مثلَ آياتِ موسى التي يقصُّها عليهمُ اليهودُ، وقصَّ بعضَها القرآنُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِحۡرَانِ﴾: (سحر) السّحْر: يقال على معان؛ الأوَّل: الخِداع وقَلْبُ الحقائق، وهو التَّمويه وتخيُّل الشّيء بخلاف حقيقته[2]، وقيل: هو إخراجُ الباطلِ في صورة الحقِّ. وهو المراد في الآية. والثّاني: استجلابُ معاونةِ الشّيطان بضربٍ منَ التّقرّب إليه. الثّالث: ما يذهب إليه الأغتام، والغُتْمَة: عُجْمَةٌ في المنطق، ورجلٌ أغتَم: لا يُفْصِح شيئًا، وهو اسمٌ لفعلٍ يزعمون أنّه من قوَّته يُغيّر الصّورَ والطّبائعَ، فيجعلُ الإنسانَ حمارًا، ولا حقيقة لذلك عند المُحصِّلين، وقد تُصوّر منَ السّحر تارةً حُسْنُه، فقيل: «إنَّ منَ البيان لَسِحرًا»[3]، وتارةً دقَّةُ فعله، حتّى قالت الأطبّاء: الطّبيعة ساحرةٌ، وسَمَّوا الغذاءَ سحرًا من حيثُ إنّه يَدُقُّ ويَلْطُف تأثيرُه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 137.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 272.
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4851).
(4) المفردات، الرّاغب: (سحر).

2) ﴿تَظَٰهَرَا﴾: (ظهر) أصل صحيح واحد يدلُّ على قوَّة وبروز، من ذلك: ظهر الشّيءُ يظهر ظهورًا، فهو ظاهر، إذا انكشف وبرز، ولذلك سُمّي وقتُ الظّهر والظّهيرة، وهو أظهرُ أوقات النّهار وأضوؤها، والأصل فيه كلُّه ظهرُ الإنسان، وهو خلافُ بطنِه، وهو يجمع البروزَ والقوّة، والظّهير: البعيرُ القَويّ، والظّهير: المُعين، كأنَّه أسند ظهرَه إلى ظهرك[1]، يقال: ظاهرتُه: عاونتُه. وهذا المعنى هو المراد هنا، أي: تعاوَنا بتصديقِ كلُّ واحدٍ منهُما الآخَرَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنت هذه الآيةُ أنَّ أهل مكَّة لمّا أُرْسِل إليهم محمّد ﷺ، قالوا تمرّدًا: هلّا أوتيَ محمّدٌ مثلَ ما أوتيَ موسى بنُ عمران منَ الكتاب والمعجزات؟ كالعصا واليد، فأمر اللّه نبيّه ﷺ بالردِّ عليهم بقوله: قل يا محمّد لقومك من قريش، أوَلَمْ يكفر الّذين علموا هذه الحُجّةَ منَ اليهود بما أوتي موسى منْ قبلك[3]، وقالوا: ساحران تظّاهرا وتعاونا، وإنّا بكلٍّ كافرون.

طلب الكفّارُ منَ الرّسول معجزةً كمعجزة موسى، وهم قد كانوا بها كافرين

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير بالفاء في: ﴿فَلَمَّا﴾:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾، الفاء هنا فصيحة، أي: أفصحت عن كلام محذوف، تقديره: فإن كان من معذرتهم أن يقولوا ذلك، فقد أرسلنا رسولًا بالحقّ، فلمّا جاءهم الحقُّ لفَّقوا المعاذير، وقالوا: لا نؤمن به حتى نُؤْتَى مثلَ ما أوتي موسى[4]. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّعبير بالفاء: أنَّها تدلُّ على المبادرة إلى إنكار الحقِّ

الإفصاح عن الكلام المحذوف، معينٌ على فهم المقصود

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 17.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 587.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 137.

لمّا جاءهم، بلا مُهلة ولا تأمُّل في الآيات التي جاء بها الرّسول، وهذا يُؤكِّد إصرارَهم على الكفر والعناد.

دلالة التَّعبير بـ (لمّا):

دلَّ التَّعبير بـ (لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ على إنكارهم للحقِّ الَّذي جاء به الرّسول حين أعلمهم به دون نظر فيه؛ كأنَّهم لمّا أرسل اللّهُ الرّسولَ إليهم عمدوا على وجه السّرعة إلى الإنكار والعناد.

الله ﷻ يريد لعباده الهداية، ويرسل لهم البلاغ

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿جَآءَهُمُ﴾:

ورد فعلُ المجيء ماضيًا، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق الوقوع، كما أنَّه يُؤْذِن بسرعة الحدث؛ تعجيلًا بدعوتهم، ورغبةً في تحقُّق إيمانهم، وهذا يدلُّ على رحمة الله بعباده، رغمَ كفرِهم وعنادهم.

الإيذان بتحقّق الوقوع، وسرعةِ مجيء الحقّ

بلاغة المجاز العقليّ في مجيء الحقّ:

النّاظر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ يجد إسنادَ المجيء إلى الحقِّ، وهذا الإسناد هنا على طريقة المجاز العقليّ؛ لأنَّ الحقَّ يُؤتى به ولا يأتي بنفسه، ولهذا المجاز أثرٌ بلاغيٌّ في تقويّة المعنى، حيثُ جعل الحقَّ كأنّه شخصٌ يأتي بنفسه، وفي هذا دليلٌ على قوَّة الحقِّ ووضوحه، بحيثُ لا يخفي على ذي بصر وبصيرة[1].

أثّر المجازُ في تقوية المعنى، وإبرازه لكلّ ذي بصيرة

دلالةُ التَّعريف في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ معرَّفًا بـ (أل) الدّالَّة على الجنس؛ لإفادة العموم فيما جاء به الرّسولُ ﷺ من القرآن والسّنّة والمعجزات، ولأنَّه في نفسه جدير بأن يُقْبَل؛ لكونه في الذّروة العليا من الثّبات. وفيه إشارةٌ إلى التّعريض بمشركي العرب الّذين خالفوا الحقَّ في أقوالهم وأفعالهم[2]، ويجوز أن تكون (أل) في لفظ الحقِّ

الإيمان بالنّبيّ المُرسَلِ، والقرآنِ المُنزَل، هما سبيلا الحقِّ المذكور

(1) الخفاجيّ، حاشية الشّهاب: 5/ 50.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 496.

للعهد، ويكون المُراد به هنا محمّدٌ ﷺ[1]، المُصَدَّقُ بالكتاب المُعجِز مع سائر المعجزات[2]، وقيل: الحقُّ هو القرآن[3]، ودلالةُ تعريفِه على كلِّ الاحتمالات الإشارةُ إلى أنَّ النَّبيّ ﷺ، وما جاء به من القرآن، هو الحقُّ الّذي يأخذ إلى الطّريق القويم، وليس هناك حقٌّ آخرُ يُعْدَل إليه.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

اتّباع النّبيّ حقّ ثابت، والعدولُ عنهُ باطلٌ ماقِت

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ دون غيره؛ لتعدُّد المراد به، فإذا كان المراد بالحقِّ النَّبيّ ﷺ، فيكون في الكلام مجازٌ عقليّ، ويكون النَّظم عبَّر عنِ النَّبيّ بالحقِّ، لإدماج الثّناء عليه في ضمن الكلام[4]، وفي هذا حضٌّ للنّاس على اتِّباعه ﷺ؛ لأنَّ العدول عنه باطل ممقوت. وإن كان المراد به القرآن، فيكون في الكلام استعارة، بتشبيه الحقِّ بشخص، وتشبيه سماعه بمجيء الشّخص[5]، وهذه الاستعارة تنبئ عن قوّة حجَّة القرآن في أوامره ونواهيه.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِنْ﴾ في السّياق:

بيان صدق النَّبيّ ﷺ، وصدقِ ما جاء به

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ ابتدائيَّةٌ، دلَّت على أنَّ هذا الحقَّ من عند الله ﷻ، فإذا كان كذلك فهو أحقُّ بالاتِّباع والامتثال.

دلالة التَّعبير بالعنديّة ﴿مِنْ عِندِنَا﴾:

ما صدر عنِ الله فهو حقٌّ صراح، لا يجوز مخالفته

دلَّ التَّعبير بالعنديَّة في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾، على تعظيم هذا الحقّ لظهوره في نفسه، فهو يحمل دليلَ أحقّيته، وفيه إشارةٌ إلى صدوره من الله تعالى، فهو حقٌّ صادر منَ الحقِّ سبحانه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 587.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 605.
(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 144.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 137.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 137.

دلالة الإضافة في: ﴿عِندِنَا﴾:

أُضيف الظّرف (عِنْدِ) إلى الضّمير العائد إلى الله ﷻ، إضافةَ تعظيم، فجِهةُ إرسالِ النَّبيّ والقرآن جهةٌ مُعَظّمة، دالَّةٌ على صدق النَّبيّ ﷺ، وصدقِ ما جاء به، يقول البقاعيّ: "وهو ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ على ما لنا منَ العظَمة، وعلى لسانك، وأنت أعظم الخَلْق"[1].

إرسال الحقّ من لدن جهة معظّمة، يعطيه صدقيّةً وقوّة

دلالةُ التّعبير بالقول، ومرجِعُ الضّمير فيه:

دلَّ التّعبيرُ بالقول في قوله: ﴿قَالُواْ﴾ على إظهار تعنُّت المشركين وعنادِهم، يُؤكِّد هذا أنَّ الضّمير يعود إلى كفّار قريش، وأنَّهم قالوا هذا القول تعنُّتًا وعنادًا، وأنَّهم ما طلبوا من النَّبيّ ﷺ هذه الآيات بدافع الإيمان، وإنَّما بدافع اللِّجاج المكذوب. وفي التّعبير بضمير الجمع دلالةٌ على تعنُّتهم الجماعيِّ، وأنَّه ليس موقفًا فرديًّا، بل هو صفة المجتمع الكافر في التّعنُّت والمعاندة.

بيانُ تعنّت المشركين وعنادِهم

دلالة التّعبير بالماضي ﴿جَآءَهُمُ﴾:

ورد القول بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ﴾، والماضي في أصل وضعه يدلُّ على حدث انتهى وتحقَّق حصولُه، وقد كشف هنا على أنَّ قلوبهم بلغت في الكفر منتهاها، وأنَّ نفوسهم انطوت على مكر بالغ، ودهاء ممقوت، فما أن جاءهم الرّسولُ ﷺ بالحقِّ الواضح، حتّى عجّلت نفوسُهم وألسنتُهم بهذا القول.

قلوب الكافرين بلغت في الكفر أقصاها، وفي الجحود منتهاها

دلالة التّعبير بـ ﴿لَوْلَآ﴾:

﴿لَوْلَآ﴾ في قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ بمعنى (هلّا) التّحضيضيَّة، والقوم غير صادقين في هذا التّحضيض، وإنَّما دافعُهم إلى هذا اللّجاجُ والحِجاج، ولو كانت قلوبُهم منطويةً على الصّدق في الطّلب، لآمنوا به ﷺ ابتداءً، حين جاءهم بالحقِّ المبين.

المشركون غير صادقين فيما يطلبون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 496.

دلالةُ التَّعبير بالإيتاء دون الإعطاء:

التّنويه بعِظَم المُـؤتى، وعُـلوّ قدرِه، مُبينٌ عنِ المراد

عبَّر القرآنُ الكريم بالإيتاء دونَ الإعطاء في قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾؛ لوجود فرق بينهما، فالإيتاء يستعمل في القرآن الكريم للشّيء العظيم والكثير، كالمُلك والحِكمة والقرآن العظيم، بخلاف الإعطاء، فلا يؤدّي هذا المعنى إلّا إذا كان مضافًا إلى لفظ (الرّبّ)، ولمّا كان الإيتاءُ يحمل هذه المعاني السّابقة، آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ به؛ لأنَّه المناسبُ في هذا السّياق لِما آتاه اللّهُ لموسى منَ التّوراة والمعجزات، ولِما يطلبونه في حقِّ الرّسول ﷺ في هذا الإطار منَ القرآن والمعجزات. وفي التَّعبير به دلالةٌ على أنّ ما يُؤْتاه النَّبيُّ منَ الآيات، ليس فيه معنى التَّملُّك والاختصاص، وإنَّما تعود فوائده على النَّبيّ ﷺ وعلى أمَّته، أمّا الإعطاء ففيه معنى التَّملُّك والاختصاص[1]، وهذا غير مناسب لهذا السّياق الَّذي يحمل الدّعوة إلى الهداية.

دلالةُ بناء الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول:

بُنِيَ الفعلُ ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول؛ لأنَّ القصد مطلقُ الإيتاء الّذي يترتّب عليه مقصودُ الرّسالة، مع أنَّ المُؤْتي معلوم[2]، وهو اللّهُ ﷻ.

بلاغةُ الاستفهام في الآية الكريمة:

تـقـريـر الـكـفـر لـلـمـشـركـين وتوبيخُهم عليه موضحٌ للمُراد

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، وفيه أنّ الاستفهام هنا أفاد معنى التّقرير لكفرهم وكفرِ آبائهم بموسى عليه السلام، ومذهبُ الأبناء مذهبُ الآباء، فما طلبَه المشركون منَ النَّبيّ منشؤه الكفرُ والعناد، لا التماسُ الهداية والرّشاد، ولذلك سجَّل القرآن عليهم هذا الكفرَ الرّاسخَ، وقرَّره لهم، وفيه معنى الإنكارِ والتّوبيخ على خُبث قصدهم، وسوء مَكْرهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 497.

دلالة التَّعبير بحرف (الواو):

الواو في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ عاطفةٌ على مقدَّر يقتضيه السّياق، والتّقدير: (أوَلَم يُؤتَ موسى ما أوتي منَ الآيات، ولم يكفر قومُه المعاندون كهؤلاء؟)[1] أي: أصَدَّقوا ولم يكفروا[2].

دلالة دخول الاستفهام على (لَمْ):

إلجاءُ المخاطَبِ إلى الإقـرار بما يعرفه، من بليغ السّياق

دلَّ دخول الاستفهام على (لَمْ) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ على إثبات الكفر لهم؛ لأنّه إذا دخلت الهمزة على (لم) و(لمّا)، فهي للاستفهام على سبيل التّقرير، ومعنى التّقرير: إلجاءُ المخاطَب إلى الإقرار بأمر يعرفه[3].

اختيارُ التَّعبير بلفظ (الكفر) لا غيرِه:

أعـظـم الـكُـفْـرِ جـحـودُ الـوحـدانـيّـة أو الـشّـريـعـة أو النّبوّة

عبّر النَّظمُ الحكيم بالكفر دون غيره في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ الكفر يكشف عن مدى الجُحود، وبالغِ النُّكران الذي وصل إليه هؤلاء، لأنَّهم عرفوا الحقَّ وتبيّنوا معالمَ الهداية، إلّا أنَّهم من شِدَّة جحودهم ستروه وكفروه، فكان الأنسبُ أن يُعبّر عنهم بلفظ الكفر، لأنَّ الكُفْر في اللّغة: السّترُ والتّغطية[4].

دلالة التَّعبير بالإضمار دونَ الإظهار:

مـن نـسـب إلى أحدٍ منَ الأنبياء مـا لا يـلـيـق، فـكـأنّـما نسبَه لجميعهم

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار في ﴿يَكۡفُرُواْ﴾ دون الإظهار؛ للدَّلالة على تعدُّد المراد به؛ فذهب البعض: إلى أنَّ الضّمير لليهود. وقيل: المُراد به مشركو العرب. والظّاهرُ عودُه على قريش؛ لأنَّ السّياق يُدلُّل على ذلك، وتناسقَ الضّمائرِ دليلٌ عليه[5]، ويكون تكذيبُ قريشٍ للرّسول ﷺ، تكذيبًا لموسى عليه السلام، ونسبةُ السّحرِ للرّسول، نسبةَ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 74.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 268.
(3) الرّضي، شرح الكافية: 2/ 251.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 138.

السّحر لموسى، فمَن نسب إلى أحد منَ الأنبياء ما لا يليق، كان ناسبًا ذلك إلى جميع الأنبياء.

سِرّ التّعبير بـ (ما) دون (الّذي):

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ (ما)، في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ دونَ (الّذي)؛ لإفادة العموم في كفرهم، فهم كفروا بالتّوراة والمعجزات، وبكلِّ ما آتاه اللّهُ لموسى من أمر الشّريعة أو النّبوّة.

كفرُ هـؤلاء كان عـامًّـا لـكـلّ ما أنـزل الـلـهُ من معجزات ووحيٍ

دلالة تكرار ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾:

كرَّر النَّظمُ الكريم قولَه: ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، ولم يكتف بسبق ذِكْره في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾؛ لتسجيل عنادِهم والقطعِ لمعاذيرهم؛ لأنَّهم على عِلْم بما أوتيَ موسى من التّوراة ومنَ المعجزات، ومع ذلك فقد كفروا بها، فكان التّكرارُ لإقامة الحُجَّة عليهم بإثبات كفرهم لِما طالبوا به من معجزات.

بيان أنّ التّكرار لإقـامـة الحُـجَّة عليهم بإثبات كفرهم

دلالةُ متعلّق الجارِّ والمجرور: ﴿مِن قَبْلُ﴾:

تعدَّدُ القولِ في تعلُّق الجارِّ والمجرور ﴿مِن قَبْلُ﴾ بناءً على المراد بالضّمير في قوله: ﴿يَكْفُرُواْ﴾؛ فمَن ذهب إلى أنَّ المراد به الكَفَرةُ في زمن موسى عليه السلام من بني إسرائيل؛ فيتعلّق ﴿مِن قَبْلُ﴾ بـ ﴿يَكْفُرُواْ﴾، لا بقوله: ﴿أُوتِيَ﴾؛ لأنَّ موسى عليه السلام ما أوتيَ الكتابَ من قبلهم، وإنّما وُبِّخَ الحاضرون في زمن سيّدنا محمّد صلوات اللّهِ عليه به؛ لأنّهم أبناء جنسهم في العناد. وإمّا لآباء الكفرةِ الحاضرين، ويكون توبيخُهم كما وُبِّخوا في قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: 92]. وجَوّزَ بعضُهم أنّ قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّقة بـ﴿أُوتِيَ﴾، فيكون المعنى: أنَّ أهل مكّة هم الذين قالوا هذه المقالةَ، فكما كفروا بمحمّد ﷺ وبالقرآن، فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتّوراة، وقالوا في موسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام:

إيغالُ المشركين في الكفر جحودًا واستكبارًا

﴿سَٰحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[1]، أو في الكتابَين: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، وذلك حين بَعَثوا الرّهطَ إلى رؤساء اليهود بالمدينة، يسألونهم عن محمّد ﷺ، فأخبروهم أنَّ نعتَه في كتابهم، فرجع الرّهطُ إلى قريشٍ فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: (ساحِران تظاهَرا)[2].

بلاغةُ الفصل في: ﴿قَالُوٓاْ سِحْرَانِ﴾:

تقرير كفر أهل الكفر، وبيانُ كيفيّته

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ سِحْرَانِ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئناف مسوق لتقرير كفرهمُ المستفادِ منَ الإنكار السّابق وبيانِ كيفيّته[3]، وعلى هذا يكون بينَ الجُملتين شِبهُ كمال اتِّصال، كأنَّ سائلًا لمّا سمع قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، سأل: ما نوعُ هذا الكفرِ؟ وما كيفيّته؟ فكان الجواب: قالوا سحران تظاهرا.

ويجوز أن تكون جملة ﴿قَالُوٓاْ سِحْرَانِ﴾ مفسِّرةً[4]، أي: وقعت بيانًا لجملة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ﴾ ففسَّرت نوعَ الكفرِ وفصَّلته، وبيَّنت حقيقتَه، وعلى هذا يكون بينَ الجُملتين كمالُ اتِّصال.

سِرُّ ورود التَّعبير بالسِّحر في ردِّهم:

التّهمة بالسّحر إبطالٌ زائف لدعوة النّبيّ ﷺ

لعلَّ ورود التَّعبير بلفظ السِّحر في رد المشركين في قولهم: ﴿قَالُوٓاْ سِحْرَانِ﴾، كان راجعًا إلى أنَّ غاية ما اتَّفقوا عليه لإبطال دعوة النَّبيّ ﷺ، هو أن يتّهموه بالسِّحر، بعد أن تحقَّق لديهم، أنَّ أسلوب القرآن الكريم بعيدٌ عن الكهانة والشّعر، فقالوا: ساحِرٌ يفرّق بين المَرء وزوجِه.

سِرُّ وصفهم موسى عليه السلام بالسّحر:

التّهمة بما ليس بحقّ، منَ السّفه والنّزق

وصف المشركون – سواء أكانوا اليهود أو مشركو مكَّة – موسى عليه السلام بالسِّحر في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ سِحْرَانِ﴾، لمّا رأوا – من قصر

(1) قرأ بها نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/ 341.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 420.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 298.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 348.

نظرهم، وغباء عقولهم - شبهًا بين معجزة العصا وقَلْبِها حيَّةً، وبينَ السِّحر.

دلالة تعدّد القراءات الواردة في ﴿سِحْرَانِ﴾:

محاربة المشركين للأنبياء وللوحي

قرأ الجمهور: ﴿سَٰحِرَانِ﴾، والمراد بهما في زعم المشركين، موسى وهارون، وقالوا: المُراد موسى وعيسى، وقالوا: موسى ومحمّد، أو عيسى ومحمّد صلّى الله وسلّم عليهم جميعًا. وقرأ الكوفيون ﴿سِحْرَانِ﴾ والمراد: التّوراة والإنجيل، أو موسى وهارون، جُعلا سِحرين على سبيل المبالغة[1]، وحاشا أنبياء الله أن يكونوا كذلك، لكنَّ الكفر والعناد يفعلان في القلب الأفاعيل، والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى للارتباط بينَ السِّحر والسّاحر، وذلك لشدَّة الاتِّصال بين الرّسل وكتبهم.

إيثارُ التّعبير بـ ﴿تَظَٰهَرَا﴾ دون (تعاونا):

التّظاهر أقوى اتّحادًا وأعظمُ تآزُرًا

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالتّظاهر دونَ التّعاون في قوله: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، مع قربهما في المعنى؛ ليُبيِّن قوَّةَ الإنكار منَ المشركين، حين رَمَوا النَّبيّيْن الكريمين بقوَّة السّحر، وأنَّهما بلغا منَ التّساند والتّعاضُد والتّآزر مبلغًا كبيرًا، تكشف عنه اشتقاقاتُ وموادُّ لفظةِ التّظاهر، فمنه: الظّهر، خلافُ البَطْن، وهو صلب الإنسان وقوّتُه، وكَذَلِكَ الظَّهر من الأرْض: ما غَلُظ وارتفَع، والظّهر: الرِّكاب الَّتي تحمِل الأثقالَ في السَّفر، والظُّهر: ساعةُ الزَّوال، ولذَلِك يُقال: صَلاةُ الظُّهر، وهو أقوى وأوضحُ أوقاتِ النّهار، فلمّا كان التّظاهُر يُلْمَحُ فيه معنى القوّة، آثرَه النَّظمُ الكريم.

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

ما يختلج في الجَنان، يكشفه اللّسان

عُطِفَتْ جملة ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾، على الجملة التي قبلها: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾؛ لاشتراكهما في معنى الجحود والتّكذيب

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 420، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 312، وابن الجزري، النشر: 2/ 341.

والنُّكران، وهما جملتان خبريَّتان في اللّفظ والمعنى، فبينهما توسُّط بينَ الكمالين، وهذا العطفُ كشفَ عن منتهى الكفرِ الذي امتلأت به قلوبُهم، وماجت به نفوسُهم، فسالَ على ألسنتهم إنكارًا وتكذيبًا.

بلاغةُ التَّوكيد في الآية:

مُفادُ السّياقِ أنّ الكفرَ نابعٌ من قلوبهم

دلَّ التَّأكيد في قوله: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾، على مبالغتهم في الجُحود والكفر المفهوم من تسميَّتهما للنَّبيَّين الكريمَين بالسّاحِرَين، ولوصفهما القرآنَ والتّوراةَ بالسِّحرَين، فكأنّهم يقولون: مهما كانت الآياتُ والأدلّةُ والبراهين والمعجزات التّي أتى بها النّبيُّ ﷺ، والّتي سيأتي بها، فلن نؤمنَ به، ولن نُذْعِنَ له.

دلالة الباء ولفظ (كلّ):

إنكار المشركين رسالاتِ جميعِ الأنبياء، منَ الضّلال المبين

الباء في قوله: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ للتّعدية، عَدّتْ فعلَ الكفرِ إلى لفظ العموم، والتّقدير: (إنّا كافِرونَ بكلٍّ منَ السّاحرَين أو السِّحرَين)[1]، أو بالتّوراة والقرآن[2]، أو كافرون بكلِّ مَن ادَّعى رسالةً، وهو أنسب بقول قريش؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 91][3]، وقد دلَّ لفظُ العموم على أنَّ قلوب المشركين فاضت بالكفر، فأنكرت رسالاتِ الأنبياء جُحودًا وإلحادًا.

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الاسميّة:

بيانُ أنّ الكفر في المشركين صفةٌ لازمةٌ لهم

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قولهم: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾، دونَ التَّعبير بالجملة الفعليّة، فيقال مثلًا: (قالوا كفرنا بموسى ومحمّد، أو كفرنا بالتّوراة والقرآن)؛ دلالةً على ثبوت الكُفر ورسوخِه في قلوب المشركين، وأنَّ هذا الكفرَ صار لهم صفةً، لا تفارقهم ولا يفارقونها.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 312.
(2) الفيروزآباديّ، تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس، ص: 328.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 138.

دلالةُ تقديمِ متعلَّق قوله: ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

النَّظم العالي يُقدّم الأهمّ؛ لبيان المعنى وجلائِه

تقدَّمَ متعلَّقُ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ عليه، وهو الجارُّ والمجرور ﴿بِكُلٍّ﴾؛ مبالغةً منَ المشركين في إثبات جحودهم وكفرهم بالأنبياء والرّسالات كلِّها، وبالآيات والمعجزات جميعها، مع ما في تقديم الجارِّ والمجرور من مراعاة فواصل الآيات.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»